



د. سفيان بوعينينة
(جامعة 20 أوت 1955 – سكيكدة)
Email : s.bouaninba@univ-skikda.dz

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية العدد 11-2015 ص 41-60

Abstract

The displacement is a characteristic of the poetic language. It provides excellence, uniqueness, fascination, and influence, and it is the most important feature of poetry. Although the displacement is a concern of linguists, critics and men of rhetoric, philosophers have their fingerprints in it too; the Muslim philosophers' theories have benefitted Arabian ancient criticism in the field of poetry with the tools and formulaic theories it supplied it with. These benefits can be found in the ancient great works related to Rhetoric and poetry done by two famous figures of philosophy in the Islamic history: IbnSina and IbnRushd, and in their understanding of poetry.

Keywords: The deviation – Philosophy - poetic language

المخلص

الانزياح سمة اللغة الشعرية، وهو يقدم التميز، والتفرد، والإدهاش، والتأثير، وهي أهم سمات الشعر، والانزياح وإن كان أقرب إلى اللغويين والنقاد والبلاغيين، فإن للفلاسفة فيه بصمات، فقد أفادت نظريات فلاسفة الإسلام النقد العربي القديم في مجال الشعر، بما أمدته من أدوات وصيغ نظرية، نجدها حاضرة في أنصاع الأعمال النقدية العربية القديمة المتصلة بمجال البلاغة ونقد الشعر، وهو ما نتلمسه في هذا الباب، من خلال عُلَمَي الفلسفة في التاريخ الإسلامي: ابن سينا، وابن رشد، في فهم كليهما للشعر.

الكلمات الدالة: الانزياح — الفلسفة — اللغة الشعرية

تقديم:

يستدعي ربطُ الانزياح بالتراث العربي الوقوفَ على جهود كثيرين تناولوا العملية الإبداعية من مختلف جوانبها، بما فيها الجانب اللغوي، فقد عرف النقد العربي القديم تيارات نقدية مختلفة من لغويين ومتأدبين، وواضعي الموازنات بين الشعراء، ومتكلمين، ونقادَ منظرين، ومتفلسفة، ولاشك في جهود كل هؤلاء ودورهم في نضج النظرية الأدبية عند العرب (جمعي، ص12)، وهي الجهود التي يرى البعض أنها لم تلق ما تستحقه من العناية والاهتمام (عبد الجليل، 2001م، ص11)، مما يفتح الباب على مصراعيه لتناول هذه الجهود في جوانبها المختلفة، ومن تلك الجوانب ما يتعلق باللغة الشعرية من منظور الفلاسفة.

مدخل: أثر الفلسفة في البلاغة العربية

عرفت الحضارة العربية الإسلامية اتجاهات نقدية واسعة الانتشار بين (النقاد والفلاسفة والمتكلمين والبلاغيين)، ونريد بالفلاسفة من تفقه فيما تُرجم من فلسفات اليونان، ولاسيما ما تعلق بالنقد الأدبي، وقد كان من أقطاب هذا الاتجاه: الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد (جمعي، 2001م، ص10).

تمتدُّ الأبحاث اللغوية التي قدمها اللغويون القدامى من الهنود واليونان واللّاتين وعلماء العصر الوسيط وعصر النهضة الأوروبية، ثم الجهود اللغوية في التراث العربي لأسلافنا الباحثين، — تمتد — لتفتح منافذ كبيرة للدرس اللغوي الحديث (عبد الجليل، 2001م، ص20)، فالبلاغة — مثلاً — تمتدُّ إلى أصول لغوية قديمة، تكشف عن اطلاع العرب على ما وصلهم من بلاغة الأجانب، ولاسيما بعد احتكاك المتكلمين بمعارف الأمم الأخرى، غير أن ذلك لا يعني أنهم أصَلُّوا دراستهم البلاغية بالاستناد إلى ما لهؤلاء، خصوصاً أن ما تسرب من بلاغة هندية وفارسية لا يعدو كونه معارف أولية، بدت أكثر عمقا بعد نقل خطابة أرسطو إلى العربية في النصف الثاني

من القرن الثالث الهجري، ثم في ترجمة كتاب الشعر لأرسطو في بداية القرن الرابع، غير أن ذلك لا يقطع بانتفاء الأصالة من دراسات اللغويين والفلاسفة والمتكلمين، ولا سيما أن الموقف العقيدي مُلزمٌ بتحقيق شروط التميز والحيطة فيما يقرءون لأصحاب الملل الأخرى. (جمعي، ص14).

إذا كان الباحثون المحدثون يختلفون في مسألة الارتباط الوثيق للفلاسفة المسلمين بالبلاغة اليونانية، ولا سيما فيما يتعلق بالأسلوب (جمعي، ص15)، فإنهم لا شك يتفقون في علاقتهم — الفلاسفة — بالبلاغة العربية؛ فإذا تناولنا المجاز باعتباره أحد أهم محاور البلاغة وجدنا جلاء العلاقة هذه، فقد اهتم البلاغيون وفلاسفة اللغة على حد سواء بالمجاز كونه ظاهرة لغوية معقدة، ويهدف البلاغيون أساساً إلى تحديد شروط الفصاحة وتفسير اختلاف الكلام البليغ عن غيره، يضاف إلى ذلك قصْدُ تلقين الناس سبل البراعة في هذا الفن. أما فلاسفة اللغة فإن اهتمامهم بالمجاز تركز على دراستهم لإشكالية المعنى، محاولين الإجابة عن جملة من الأسئلة أهمها: ما هو المعنى؟ وهل يكون حرفياً، ويكون مجازياً؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما طبيعة الاختلاف بين المعنيين؟ وما العلاقة بينهما؟ وغيرها من الأسئلة (الشارفي، ع64)، وقد لزم للإجابة على هذه التساؤلات تحسس خصائص الخطاب الأدبي الذي يتحقق فيه المستويان معاً في استعمال اللغة، مستوى يجري فيه المستعمل على العادة والعرف (الاحتذاء)، ومستوى يتصرّف فيه المستعمل، ويُجري اللغة على ما يستجيب لمقاصده في العبارة (جمعي، 2001م، ص 30-31)، من باب المجاز.

شغلت قضية اللفظ والمعنى المركز الأهم عند فلاسفة اللغة والبلاغيين على السواء؛ والبحث في هذه القضية يستند في الأساس إلى فكرة التقابل بين الكلم العادي والكلام الأدبي، لأن علاقة المعاني بالألفاظ تتضح أكثر عندما يتعلق الأمر بالخطاب

الأدبي، لأن إدراك مواصفات هذا الأخير يقوم على عمق إدراك البنية اللغوية وطريقتها في تشكيل المعنى (جمعي، 2001م، ص30)، في مقابل الكلام العادي. وقد حدّد الفلاسفة إطار الشعر والخطابة انطلاقاً من رصد ثنائية الاستعمال في الظاهرة اللغوية بين الكلام العادي والكلام الأدبي، لأنهما يمثلان هرم القول البليغ وإن تفاوتتا في الدرجة، ويعتمد الفلاسفة الإسلاميون رصد أشكال الانزياح عن الكلام العادي في اصطلاحات مختلفة، منها: التجوّز، والتوسّع، والعدول، وإخراج القول غير مخرج العادة، وذلك انطلاقاً من المنظور الوظيفي الذي يحدد خصائص بنية القول، وفي حدود هذه الثنائية (عادي/أدبي)، يتّضح الانزياح، الذي يتجلى في بعد اللغة الأدبية عن الاستعمال العادي.

أ - الانزياح عند ابن سينا (ت 428هـ)¹:

يتناول ابن سينا في شرحه لـ "فن الشعر" — أولاً وقبل أي شيء — تعريف الشعر، يقول: «ونقول نحن أولاً: إن الشعر هو كلام مخيّل مؤلّف من أقوال موزونة متساوية، وعند العرب مقفاة.» (ابن سينا، ص161)، ومسألة القافية واردة في حدّ قدامة بن جعفر للشعر العربي؛ يقول فيه: «إنه قول موزون مقفى يدل على معنى.» (قدامة بن جعفر، ص53)، أمّا مسألة التخييل فتتاج الفكر اليوناني الأرسطي؛ وهي "المحاكاة" أيضاً عند فلاسفتنا، ولا تتحقق إلا بأحد أمور ثلاثة: بأمور موجودة في الحقيقة، أو بأمور كانت موجودة ومازالت، أو بأمور يُتوقع أن تظهر (ابن سينا، ص196)، وفي هذه الأمور الثلاثة يستعين المحاكي بأنواع من اللفظ مخصوصة؛

¹ — ابن سينا هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسين بن علي بن سينا الملقب بالشيخ الرئيس، ولد في عام 370هـ من أسرة فارسية الأصل، عُرف بألقاب كثيرة، منها: حجة الحق، شرف الملك، الشيخ الرئيس، الحكم الدستور، المعلم الثالث، الوزير. برز في الطب وعمره ست عشرة سنة، درس الفلسفة والمنطق، وكتب في الطبيعيات والهندسة والرياضيات والكيمياء وغيرها، وعرف بشخصيته الجادة التي تغوص في عمق المسائل؛ وقد عكف على دراسة اللغة ثلاث سنوات كاملة، فبلغ جراً ذلك مرتبة عظيمة في اللغة، وأهم كتبه: كتاب النجاة، كتاب الشفاء، وكتاب الإشارات والتنبيهات، كتاب القانون في الطب، وغيرها. (ابن خلكان، ص157-161).

والألفاظ عند ابن سينا إمّا أن تكون حقيقية، وإما لغة، وإما زينة، وإما موضوعة، وإما منفصلة، وإما متغيرة، وقد وضّح ابن سينا أنواع اللفظ هذه على النحو التالي: فالحقيقي: اللفظ المطابق للمعنى، واللغة: اللفظ الذي يستخدمه قوم ليس من لسان المتكلم، والزينة: وهي النقل كقولهم للشيخوخة "مساء العمر"، والموضوع: الذي يخترعه الشاعر ويكون أول من استعمله، والمنفصل: المحرّف عن أصله بمد قصر، أو قصر مد، أو ترخيم، أو قلب، والمتغير: المستعار والمشبّه (ابن سينا، ص192)؛ فلغة المحاكاة إذن لغة فيها إلى جانب الحقيقة؛ غريب، ومنقول، ومخترع، ومحرّف، ومتغيّر؛ وجمال القول ورشاقته تتحقق — كما يرى ابن سينا — بالتغيير الذي يتجاوز استعمال اللفظ كما يوجبه المعنى إلى الاستعارة والتبديل والتشبيه (دراسة، 2003، ص163)، وهذا التغيير هو الذي يكسب الكلام جمالاً ورونقاً، وابن سينا يقصد به استخدام الألفاظ في غير معناها الحقيقي، والخروج بالتركيب اللغوية عن مجراها الطبيعي، وهذا كله يتضمن الصور القائمة على المقارنة أو الإبدال، كالتشبيه والاستعارة، وما يجري مجراها من المجاز، كما يتضمن الإغرابات في التراكيب اللغوية المعتادة، وهذه الأبواب كلها داخلة تحت ما يعرف عند النقاد بالتغيير والانحراف، وفي مواضع أخرى بالانزياح. (تخريشي، 2004، ص90).

ويتحقق التخيل والمحاكاة — عند ابن سينا — بأشياء ثلاثة: باللحن الذي يتنغم فيه؛ لما له من أثر في النفس، وبالكلام نفسه إذا كان مخيّلاً محاكياً، وبالوزن العروضي (ابن سينا، ص168)، وإذا كان الفارابي قبل ابن سينا قد فرّق بين الشعر والقول الشعري، على أساس أن الشعر هو قول مخيل موزون، والقول الشعري قول مخيل غير موزون، فإن ابن سينا يرى القول الموزون غير المخيل شعراً ناقصاً، أما القول المخيل الموزون فهو الشعر الكامل، والقول المخيل غير الموزون هو النثر (غرّكان، 2004م، ص194)، وغاية التخيل فيهما إثارة النفس والتأثير فيها.

يرى ابن سينا أن الخرافات الشعرية هي الأقاويل المخيَّلة، وتحقق الخرافات إما بالتشبيه، وإما بأخذ الشيء نفسه لا على ما هو عليه، بل على سبيل التبديل، استعارةً ومجازاً (ابن سينا، ص168)، وفي ذلك كله تتحقق المحاكاة التي يعرفها ابن سينا بأنها: «إيراد مثل الشيء وليس هو هو» (ابن سينا، ص168)، وهو ما يميّز القول بالخواصّ الصورية التي تؤسس جوهر المحاكاة (جمعي، 2001م، ص144)، وابن سينا هنا يستعمل الخرافات الشعرية بمعنى الأقاويل المخيَّلة، وتحقق هذه الخرافات يكون عن طريق التشبيه، وكذا عن طريق التبديل في الاستعارة والمجاز.

ويفرّق ابن سينا — استناداً إلى التخيل — بين الخطابة والشعر، وذلك لأنّ «الخطابة تستعمل التصديق، والشعر يستعمل التخيل» (ابن سينا، ص162)، ومردّد ذلك في نظره أن المراد في الشعر التخيل لا إفادة الآراء، فالشعر عنده يقوم على المحاكاة والتخيل باستعمال الألفاظ استعمالاً محرّفاً عما جرت عادة الاستعمال، في حين تقوم الخطابة على الإقناع باستعمال الألفاظ استعمالاً حقيقياً (ويس، 2002م، ص59-60)، ويشترط ابن سينا في تمام تخيل الشعر الوزن، والتخييلات والمحاكيات — عنده — لا تعدّ ولا تحصر، والمستحسن منها (المخترع المبتدع) (ابن سينا، ص162-163)، وكأنّ الشاعر يستخدم اللفظ استخداماً يكون فيه هو الموجد له أو الخالق والمبدع، ناظراً إلى ما يؤدّيه السياق، وهذا ما ينسجم ومفهوم البديع لغة، والذي هو إحداث شيء على غير مثال سابق (غرّكان، 2004م، ص74).

ويستعمل مصطلح التخيل "المحاكاة" مقابلاً للتصديق في القول؛ يقول: «إذا كانت محاكاة الشيء بغيره تحرك النفس وهو كاذب، فلا عجب أن تكون صفة الشيء على ما هي عليه تحرك النفس وهو صادق، بل ذلك أوجب. لكن الناس أطوع للتخيل منهم للتصديق، وكثير منهم إذا سمع التصديقات استكرهها وهرب منها، وللمحاكاة شيء من التعجيب ليس للصدق، لأن الصدق المشهور كالمفروغ منه ولا طلاء له،

والصدق المجهول غير ملتفت إليه، والقول الصادق إذا حُرِّف عن العادة ألحق به شيء تستأنس به النفس، فرمما أفاد التصديق والتخييل معا، وربما شغل التخييل عن الالتفات إلى التصديق والشعور به. والتخييل إذعان، والتصديق إذعان، ولكن التخييل إذعان للتعجب والالتذاذ بنفس القول، والتصديق إذعان لقبول أي شيء على ما قيل فيه.» (ابن سينا، ص 162)، ولنا أن نقف في هذا القول المطول على مصطلحين يحلان على الانزياح، والأمر يتعلق هنا أولاً: بالتعجب — أو التعجب —، وثانياً: بالتحريف.

أولاً: "التعجب": يقول ابن سينا في "الخطابة": «الرونق المستفاد بالاستعارة والتبديل سببه الاستغراب والتعجب، وما يتبع ذلك من الهيبة والاستعظام والروعة لما يستشعر الإنسان من مشاهد الناس الغرباء، فإنه يحتشمهم احتشاماً لا يحتشم مثله المعارف، فيجب على الخطيب أن يتعاطى ذلك، حيث يحتاج إلى الروعة والتعجب، وللأوزان تأثير كبير في ذلك» (ابن سينا، 2002، ص 28)، ثم إن الشعر عند ابن سينا قد يقال للتعجب وحده، كما يقال لأغراض المدنية، وتلك كانت سمة الأشعار اليونانية (ابن سينا، ص 162)، أما العرب فقولها الشعر كان لوجهين: أحدهما التأثير في النفس لغاية ما تُعدُّ به نحو فعلٍ أو انفعال، والآخر للتعجب فقط، وسبيل ذلك حسن التشبيه (ابن سينا، ص 170)، ومن ذلك فرق ابن سينا في القول بين التصريح والتعجب، وأوضح القول ما يكون بالتصريح، ويكون التصريح بالألفاظ الحقيقية، أما غير ذلك فيخرج عن التفهيم إلى التعجب ومثال ذلك في الاستعارة التي تتوخى حيلةً في اللفظ أو المعنى (ابن سينا، ص 193)، وهي الحيلة التي تعبّر عن خاصية من خصائص الخطاب الشعري والأدبي عموماً، وتمثل صورة من صور التخييل (جمعي، 2001م، ص 147)، ومثال ذلك جليٌّ في الاستعارة التي لا تكون إلا بالتبديل، فالشعر لا يشترط فيه الصدق أو الكذب، لأنه لا يهدف إلى إيصال معرفة حقيقية بقدر ما

تهدف إلى إثارة اللذة، وهدفه الأول والأخير هو التعجيب (خمري، 2001م، ص158)، ويبدو جلياً عند ابن سينا أن وظيفة الشعر تتمثل في التعجيب الذي ينتج من الإغراب والانزياح عما عُرف وشاع (ويس، 2002م، ص61).

ثانياً: التحريف، وهو مصطلح استعمله المحدثون ترجمة للمصطلح الغربي (Deviation)، وهو من دلالات الانزياح، والتحريف عند ابن سينا مرتبط بالعمل الإبداعي، لأن الانحراف عن المؤلف والمتعارف عليه في اللغة يعطي التراكيب اللغوية في العمل الإبداعي دلالات جديدة (درابسة، 2003. ص168)، كما يعدّ ابن سينا التحريف والكذب في المحاكاة من الغلط؛ [والتغليط من مقاصد الانزياح لأنه يوهم المتلقي خلاف الواقع حتى يعتقد أنه حقيقة]. الشاعر؛ يقول: «فمن غلط الشاعر محاكاته بما ليس بممكن، ومحاكاته على التحريف، وكذبه في المحاكاة.» (ابن سينا، ص196).

ووردَ عند ابن سينا مصطلح (الإغراب) أيضاً، وهو الذي يستعمله بعض المحدثين بدلالة الانزياح، يقول ابن سينا: «واللغة تستعمل للإغراب والتحجير والرمز، والنقل أيضاً كالاستعارة، (...) وكلما اجتمعت هذه كانت الكلمة ألدّ وأغرب وبها تفخيم الكلام وخصوصاً الألفاظ المنقولة.» (ابن سينا، ص193)، فمطلب اللذة أساسٌ عند ابن سينا في العمل الإبداعي، وهو لا يتحقق إلا بالإغراب، والتحجير، والرمز، والنقل، وهذا ما يجتمع للشعر وللکلام الأدبي عموماً مع الإقرار بتفاوت القول الأدبي، بحسب أنواعه في توظيف هذه الأقسام كمياً وكيفياً، كما يتجسد ذلك أساساً في الفروق بين الخطابة والشعر (جمعي، 2001م، ص139)، وحدوث اللذة يتأتى من الانسجام بين الموضوع المدرك والنفس، وما في التخيل من جمال سوى درجة أعلى من درجات الحسن (جمعي، ص122)، فابن سينا يعتبر اللذة أول سبب مولد للشعر، لأنها غاية الشاعر عند المتلقي، وهذا ما يُبرز دور الحجاز في البنية الشعرية

وعلاقة ذلك بالمتلقي بوصفه طرفاً أساساً في العملية الإبداعية (دراسة، 2003، ص168)، فالسبب المولد للشعر عاملان: أحدهما الالتذاذ بالمحاكاة المؤثرة في النفس، وثانيهما حب الألحان المستندة إلى الأوزان المناسبة لها، فالمحاكاة والوزن هما العلتان اللتان تولدت الشعرية منهما (ابن سينا، ص171-172)، فالشعر عند ابن سينا يكمن في قدرته على إحداث انفعال ذاتي وجداني في المتلقي، وليس تصديقاً عقلياً (غرّكان، 2004م، 41).

وقد قرن ابن سينا المجاز والتشبيه والاستعارة بعملية التخيل، وعدّها وسائل يتحقق من خلالها فعل التخيل، لذلك كان الشعراء، في رأيه، يجتنبون اللفظ الموضوع ويحرصون على التغيير بالاستعارة أشد الحرص، لما فيه من تخيل وإدهاش (دراسة، 2003، ص162)، مجمل القول في مسألة التّخيل عند ابن سينا أنّها تتعلق بثلاث قضايا متصلة بتعريف الشعر؛ الأولى: إثارة النفس، أو التأثير في المتلقي، والثانية: اعتبار التخيل جزءاً من جوهر الشعر، والثالثة هي نسبة الصدق والكذب في الشعر (خُمري، 2001م، ص178-179).

يستعمل ابن سينا أيضاً مصطلح "العدول" الذي استعمله المحدثون أيضاً بدلالة الانزياح، وقد أرجع غاية العدول إلى التزيين، يقول: «العدول عن المبتذل إلى الكلام العالي الطبقة التي فيها أجزاء هي نكت نادرة، هو في الأكثر بسبب التزيين، لا بسبب التبيين» (ابن سينا، ص174)، وهو ما يعني أن وظيفة العدول في الأكثر جمالية، دون أن تعدم الوظيفة التبيينية، وإذا كانت الإبانة ناتجة عن الكلام المبتذل أو العادي فإن تزيين الإبانة من خصائص الكلام العالي أو الفني، وما يفضّل في هذا الكلام العالي — إن مثلنا له بالشعر — أن لا يكون مشهوراً وقریباً، ذلك أن القريب والمشهور غير مستحسن في الشعر بل المستحسن فيه — كما سبق — المخترع المبتدع. (جمعي، 2001م، ص135).

نصل، بعد هذا العرض، إلى أنَّ اللغة الشعرية عند ابن سينا تقوم على دلالة الانزياح باستعمالات مصطلحية متعددة، وقد رصدنا أبرزها عنده على النحو الآتي: التخييل (المحاكاة)، وفي لغة التخييل إلى جانب الحقيقة؛ (غريب، ومنقول، ومختار مبتدع، ومحرف، ومتغير بـ "تشبيه، أو استعارة، أو مجاز")، والخرافات الشعرية (التي هي الأقاويل المخيَّلة)، والأخذ، والكذب، والتحريف، والتعجيب، والإغراب، والعدول.

ب - الانزياح عند ابن رشد (ت588 هـ)¹:

يحتل ابن رشد مكانة سامقة في تاريخ الفلسفة الإسلامية، فقد كان خاتمة طيبة لحلقة الفلاسفة الكبار في الإسلام، أمثال الكندي والفارابي وابن سينا، وصلة بين التراث الفلسفي الإسلامي والنهضة الأوربية الحديثة، ولم تكن منزلة الرجل في نقد الشعر تقل عن منزلة سابقه (المومني، ص30).

يبدأ ابن رشد حديثه في كتاب الشعر عن الأقاويل الشعرية، بما ينسجم مع رأي ابن سينا السابق في ضبط حقل الكلام الأدبي عموماً، والشعري خصوصاً، بمقابلته بالكلام العادي (جمعي، 2001م، ص135)، وهو يركز على التخييل (المحاكاة والتشبيه) — أساس الشعر عنده وعند ابن سينا —، يقول: «الأقاويل الشعرية هي الأقاويل المخيَّلة، وأصناف التخييل والتشبيه ثلاثة: اثنان بسيطان، وثالث مركَّب منهما، أما الاثنان البسيطان فأحدهما تشبيه شيء بشيء وتمثيله به؛ وذلك يكون في لسان لسان بألفاظ خاصة عندهم، مثل: كأن، وإخال، وما أشبه ذلك في لسان العرب، وهي التي تسمى عندهم حروف التشبيه، وإما أخذ التشبيه بعينه بدل التشبيه،

¹ — ابن رشد هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد، ولد عام 520م بقرطبة، ويعود نسبه إلى بني أمية، برز في الطب، واشتهر في الفلسفة، كان طبيباً وقاضياً، أهم مؤلفاته — عدا الشروح — "تهافت التهافت" وهو رد على "تهافت الفلاسفة" للغزالي، و"فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة في الاتصال" وهو رسالة في التوفيق بين الشريعة والحكمة، و"الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة"، وهو رسالة في نقد براهين المتكلمين والمتصوفة، و"بداية المجتهد ونهاية المقتصد" في الفقه، وغيرها، كما ترجم أكثر المؤلفات الطبية والفلسفية إلى اللاتينية والعبرية، والأكد أن آثاره الباقية أقل مما أنتج، لأن أغلب آثاره أُحرق. (العقاد، ص5، وص18، وص27-28-29).

وهو الذي يسمى الإبدال في هذه الصناعة، (...) [وفيه] تدخل الأنواع التي يسميها أهل زماننا استعارة وكناية.» (ابن رشد، ص201- 202)، فصنف التخيل الأول هذا يقوم على التشبيه سواء كان بأداة أو دونها، أما الصنف الثاني: فهو أن يبدل التشبيه، كأن تقول: الشمس كأنها فلانة، أو الشمس فلانة، لا: فلانة كالشمس، أو هي الشمس؛ وهو التشبيه المقلوب، لما يوهم في ذهن السامع من أن المشبه أكمل من المشبه به، أما الصنف الثالث من الأقاويل الشعرية المخيلة فهو المركب من هذين التشبيهين؛ الطبيعي والمقلوب (ابن رشد، ص202- 203)، ومن باب الخروج باللغة عن العادة إكساب الشيء صفات غيره، والتي ليست فيه أصلا، أو التي فيه شيء منها، على سبيل إيراد مثل الشيء وليس هو هو (ابن سينا، ص168)، وفهم ابن رشد لمفهوم المحاكاة على هذا النحو هو نفسه ما نجده عند ابن سينا، فقد جعل ابن رشد المحاكاة مرادفة للتخيل، والتخيل مقترنا بالتشبيه والاستعارة، من حيث هي أدوات التشكيل والبناء الشعري خاصة (القرقوري، ع03).

واللذة من أهم المطالب التي يرجى تحقيقها في الشعر، وهي تتحقق، باللحن والوزن والتخيل، وقد ركّز ابن سينا عليها، ثم فعل ذلك ابن رشد، فالأقاويل الشعرية — عنده — إنما تكون لذيدة لما فيها من التخيل و الوزن، وكلاهما تغيير (ابن رشد، 1960م ، ص260)، والتغيير أساس الانزياح، ونموذج اللذة التي يصنعها التشبيه في طبع النفس البشرية الميال إلى الالتذاذ بالمحاكاة، ما قدّمه ابن رشد من أن الإنسان تتحقق له الإثارة واللذة والدهشة عندما يرى صور الحيوانات التي يصنعها المهرّ من الفنانين، في حين لا تتحقق له هذه اللذة عند رؤية هذه الحيوانات حقيقةً (ابن رشد، ص206)، وتلك صنعة التصويرات التي تروق الناظرين وتروّعهم، وشبيه بها ما يقع في نفس السامع من الصنعة اللغوية التي تهمّز النفس لما فيها من الإدهاش والتعجب (البنداري، 2000م، ص163).

ومن التغيرات الشعرية التي يقدمها ابن رشد، نجد الكناية التي يرى أنها من محسنات القول ومحبياته، لعدم التصريح بأسماء الأشياء؛ لأن التصريح بها أمر مستبشع (ابن رشد، 1960م، ص265)، ولذلك استحسن التشبيه البعيد في قوله: «إذا كان التصريح بالشئ قبيحا كان التشبيه البعيد في ذلك أحسن من القريب» (ابن رشد، 1960م، ص267)، وتبعا لذلك كلما كان التشبيه بعيدا؛ أي كلما كانت المسافة بين المشبه والمشبّه به بعيدة، كلما زادت حدة الانزياح.

زيادة على ذلك فإن القول يكون مغيّراً عن القول الحقيقي لما فيه من الأسماء الغريبة، وغيرها من أنواع التغير (ابن رشد، ص201-242)، وينتج من ذلك الأسماء المشكّكة التي تُوهّم الشئ وضده، وتضللّ السامع، وهي التي يستعملها السفسطائيون، غير أنها بصناعة الشعر أخص (ابن رشد، 1960م، ص274)، وذلك من باب استعمال اللفظ في غير ما وُضع له أصلا، وهو الانزياح.

وقد عرض ابن رشد أنواع التغير في "تلخيص الخطابة"، انطلاقا من تقسيم الألفاظ المفردة من ناحية دلالتها، وعدّها ثمانية أقسام، نذكر منها ما يتصل بالانزياح، وهي المستولية، والمغيّرة، والغريبة، والمركبة، والمغلطة، والموضوعة، وتفصيلها كما وردت في "تلخيص الخطابة" على النحو التالي: أما المستولية فهي الحقيقية المشهورة المبتدلة الدالة على المعاني التي وضعت لها من أول الأمر (ابن رشد، 1960م، ص254، وص257)، وهذه الألفاظ إذا استُعملت لا يكون الانزياح، وإنما يتحقق الانزياح عنها، ويكون في الألفاظ المغيّرة، والغريبة، والمركبة، والمغلطة، والموضوعة، والمغيّرة تحيل أكثر من غيرها على الانزياح وفيها قال ابن رشد: «أما المغيّرة فهي أشهرها وأكثرها نفعا في الصناعتين [الشعر والخطابة]. ومعنى التغير أن يكون المقصود يدل على لفظ ما فيستعمل بدل ذلك اللفظ لفظ آخر. وهذا التغير يكون على ضربين: أحدهما أن يستعمل لفظ شبيه الشئ مع لفظ الشئ نفسه ويضاف إليه الحرف

الدال في ذلك اللسان على التشبيه. وهذا الضرب من التغيير يسمى "التمثيل" و"التشبيه"، وهو خاص جدا بالشعر. والنوع الثاني من التغيير أن يؤتى بدل ذلك اللفظ بلفظ الشبيه به، أو بلفظ المتصل به من غير أن يؤتى معه بلفظ الشيء نفسه. وهذا النوع في هذه الصناعة يسمى "الإبدال"؛ وهو الذي يسميه أهل زماننا بالاستعارة و البديع» (ابن رشد، 1960م، ص254)، وأما الغريبة فهي ألفاظ غير مبتدلة عند الناس وغير مستعملة عندهم، إنما يستعملها الخواص منهم، وأما اللغات فهي أن يستعمل لفظ في مخاطبة صنف من الأمة ليس يستعمله، إنما يستعمله صنف آخر منهم، مثل أن يستعمل الحجازي لغة حميرية، وأما المركبة فإنها غير موجودة في لسان العرب إلا قليل وشاذ، مثل قولهم عبقي في المنسوب إلى عبد قيس، وعبشي في المنسوب إلى عبد شمس، وأما المغلطة فهي الألفاظ التي يعسر النطق بها، لأسباب تعود إلى طبيعة الحروف المتجاورة أو إلى كثرتها، وأما الموضوعية فهي الألفاظ المخترعة التي لم تكن مستعملة في ذلك اللسان (ابن رشد، 1960م، ص257-259)، وقد ماز ابن رشد — انطلاقاً من أنواع التغيير هذه — بين اللغة الشعرية واللغة البرهانية واللغة الخطابية جميعاً، أما في البرهان فتستعمل اللغة على ما وضعت له دون تغيير (الألفاظ المستولية)، أما لغة الخطابة فتستعمل الألفاظ المستولية والمغيرة التي أصبحت مشهورة وانتفى ما كان فيها من غموض وإهمام، أما اللغة الشعرية فتختلف عنهما بالطريقة والغاية، فهي تستعمل الألفاظ المغيرة لأن وظيفتها التخيل والتعجيب (ويس، 2002م، ص61-62).

يقول ابن رشد في المغير من اللفظ: «متى تعرى الشعر كله من الألفاظ الحقيقية المستولية كان رمزا ولغزاً، ولذلك كانت الألغاز والرموز هي التي تؤلف من الأسماء الغريبة، أعني بالغريبة: المنقول، والمستعار، والمشارك، واللغوي، والرمز — واللغز هو القول الذي يشتمل على معان لا يمكن أو يعسر اتصال تلك المعاني بالذي يشتمل

عليها بعضا ببعض حتى يطابق بذلك أحد الموجودات» (ابن رشد، ص238)، لأن الشعر لا يَعدَم وظيفتهُ التواصلية التي تبقى أساسا مطلوباً في الأداء اللغوي عموماً، والشعر من بين الأداءات اللغوية يزواج بين الألفاظ الحقيقية المستولية، حين يؤدي رسالة الإيضاح، وبين الألفاظ المغيرة حين يريد التعجيب والالتذاذ (ابن رشد، ص238).

وقد فصل ابن رشد القول في مفهوم التغيير بصورة تحلي دلالة على الانزياح، قال: «التغييرات تكون بالموازنة والموافقة والإبدال والتشبيه، وبالجملة: بإخراج القول غير مخرج العادة، مثل: القلب والحذف والزيادة والنقصان والتقديم والتأخير وتغيير القول من الإيجاب إلى السلب ومن السلب إلى الإيجاب، وبالجملة: من المقابل إلى المقابل، وبالجملة: بجميع الأنواع التي تسمى عندنا مجازاً. فالحذف مثل قوله تعالى: "وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ..." (سورة يوسف: 82)، وقوله: "وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى" (سورة الرعد: 30)، والقلب مثل قول القائل: فلان من أجل بنيه، لا بنوه من أجله (...)، والتقديم والتأخير مثل قوله تعالى: "وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ" (سورة البقرة: 118)، والزيادة مثل قوله تعالى: "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ" (سورة الشورى: 9)، ومثل التغيير من الإيجاب إلى السلب قول القائل: "ما فعله أحدٌ إلّا أنت" بدل "أنتَ فعلته" (...). ومن التغييرات اللذيذة جمع الأضداد في شيء واحد، كقوله [يعني المتنبى]: "فِيكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخِصْمُ وَالْحَكْمُ" (ابن رشد، ص243-244)، فإخراج القول الشعري إخراجاً مغايراً للمألوف يتحقق في مستويات الخطاب المختلفة، فهو يتحقق في بنيته الإيقاعية التي تتسم بالانسجام والتوازن، ويتجسد في المستوى التركيبي من خلال التصرف في تراكيب الكلام تقديماً وتأخيراً، حذفاً وإيجازاً، وما إلى ذلك، فضلاً عن المستوى الدلالي وما يتعلق به من أمور الصّور والمجاز عامة (جمعي، ص158).

يعزو ابن رشد فضيلة القول الشعري إلى التغيير، ويرجع المحدثون اليوم مزيته إلى المصطلح الذي يوافق دلالته، وهو (الانزياح)، و التغيير يكون — عنده — متى أفاد في المعنى المدلول عليه أمرا لم يسبق للسامع إدراكه، أو كان إدراكه له ناقصا، على غير الدلالة المرادة، ويتحقق هذا بالتخييل الذي تعطيه الألفاظ المغيرة، ولهذه التغييرات بما تحملها من الغرابة وقعها الفعال في النفس متعة والتذاذا، وتأثير غرابة الألفاظ في النفس عند ورودها على السماع، شبيهة بما يُعرض لأهل المدينة من الدهشة من الغرباء الوافدين إليها، وبمقدار الغرابة تتفاضل الألفاظ المغيرة فيما بينها في التخييل (ابن رشد، 1960م، ص 259-261)؛ أي بقدر ما تحدثه من الانفعالية والتأثير، والأقاويل الانفعالية تُستعمل فيها الأسماء الغريبة والموضوعة والمضاعفة، وهذه الثلاثة أنواع من الألفاظ تخيل أمرا زائدا على الأمر المقصود بها، ويُحرّك المتلقي إلى الانفعال ما في القول من التخييل والتغيير والتغريب (ابن رشد، 1960م، ص 282).

لا تتعلق الغرابة بالألفاظ ودلالاتها فحسب، بل تظهر في التركيب أيضا، ونجد ذلك في تعليق لابن رشد على قول لأرسطو في الإغرابات، يرى فيه أن الإغرابات التي تنجح في صناعة الشعر، تكون من قبل التركيب غير المعتاد في هذه الأقاويل، وهي تغييرات بحسب التركيب لا بحسب الألفاظ المفردة، ومثال ذلك في: التقديم والتأخير والحذف والزيادة (ابن رشد، 1960م، ص 301)، وهو ما يُعرف في الحداثة بالانزياح التركيبي.

عدّد ابن رشد جملة من التغييرات التي تفعل الالتذاذ والتخييل، منها: التغيير الذي يكون من الضد، وذلك بأن يسمّى الشيء باسم ضده على جهة التحسين له، كأن تسمّى الحرب سلما (ابن رشد، 1960م، ص 292-293)، ومنها أيضا «الإفراطات في الأقاويل و الغلو فيها.» (ابن رشد، 1960م، ص 301)، وقد يبلغ ذلك حدّ الكذب

والنفاق، أو ما يسميه ابن رشد الأخذ بالوجه أيضا، وهو مستحسن في الخطابة عنده، ومنها أيضا التغليط، ويكون لذيذا ومستقبحا، وقد أشار إلى التغليط اللذيذ في "تلخيص الخطابة" (ابن رشد، 1960م، ص297)، وفصّل في عرض التغليط المُستَقْبَح في "كتاب الشعر" (ابن رشد، ص247-249)، ومن ذلك لا نرى في التغليط بوجهيه إلّا خروجاً بالقول غير مخرج العادة (الانزياح).

تتجلى دلالات الانزياح، عند ابن رشد، من خلال ما جمعتُ من استعمالاته في: التغيير(التبديل): ويضم الأسماء[المغيّرة والغريبة، واللغات، والمركبة، والمغلطة، والموضوعة]، الإغراب، التخيل (المحاكاة)، المجاز، الاستعارة، التشبيه، الكناية، الرمز، اللغز، التحريف، الكذب، والتغليط، وغيرها.

خاتمة

— اهتم البلاغيون وفلاسفة اللغة على حد سواء بالمجاز كونه ظاهرة لغوية معقدة، وشغلت قضية اللفظ والمعنى المركز الأهم عندهم؛ استناداً إلى فكرة التقابل بين الكلام العادي والكلام الأدبي. وهي الفكرة التي حدّد الفلاسفة على أساسها إطار الشعر والخطابة، لأنهما يمثلان هرم القول البليغ وإن تفاوتتا في الدرجة.

— يعتمد الفلاسفة الإسلاميون اصطلاحات مختلفة لرصد الكلام غير العادي، منها: التجوّر، والتوسّع، والعدول، وإخراج القول غير مخرج العادة،... وغيرها.

ابن سينا

— التخيل أبرز المصطلحات التي استعملها ابن سينا للدلالة على الانزياح، وهو يرى أن المحاكاة عند اليونان هي التخيل عند الفلاسفة المسلمين، ويتحقق — عنده — بأشياء ثلاثة: باللحن الذي يتنغم فيه؛ لما له من أثر في النفس، وبالكلام نفسه إذا كان مخيلاً محاكياً، وبالوزن العروضي.

— لا يتحقق القول المخيّل أو المحاكي إلا بأنواع من اللفظ مخصوصة؛ والألفاظ عند ابن سينا إمّا أن تكون حقيقية: وهي الألفاظ المطابقة للمعنى، وإما لغة: وهي الألفاظ التي يستخدمها قوم ليس من لسان المتكلم، وإما زينة: وهي النقل كقولهم للشيوخوخة "مساء العمر"، وإما موضوعة: وهي الألفاظ التي يخرعها الشاعر ويكون أول من استعملها، وإما منفصلة: وهي المحرّفة عن أصلها بمد قصر، أو قصر مد، أو ترخيم، أو قلب، وإما متغيرة: وهي المستعارة والمشبّهة. فلغة المحاكاة إذن لغة فيها إلى جانب الحقيقة؛ غريب، ومنقول، ومخترع، ومحرّف، ومتغيّر؛ وجمال القول ورشاقته تتحقق — كما يرى ابن سينا — بالتغيير الذي يتجاوز استعمال اللفظ كما يوجبه المعنى إلى الاستعارة والتبديل والتشبيه، وهذا التغيير هو الذي يكسب الكلام جمالاً ورونقاً.

— قرن ابن سينا المجاز والتشبيه والاستعارة بعملية التخييل، وعدّها وسائل يتحقق من خلالها فعل التخييل، لذلك كان الشعراء، في رأيه، يجتنبون اللفظ الموضوع ويحرصون على التغيير بالاستعارة أشد الحرص، لما فيه من تخيل وإدهاش.

— يرى ابن سينا أن **الخطابة** تستعمل التصديق أو التبيين، **والشعر** يستعمل التخييل أو المحاكاة.

— من أهم المصطلحات التي استعملها ابن سينا وجاءت دالة على الانزياح، بل استعملها بعض الحداثيين مصطلحات مرادفة: **التحريف**، **والإغراب**، **والعدول**، **والتعجيب**.

ابن رشد

— المحاكاة مرادفة للتخييل عند ابن رشد كما هي عند ابن سينا.

— يقترن التخييل عند ابن رشد **بالتشبيه والاستعارة والكناية**، إذ ينتج عنها: التلميح والبعد عن التصريح لما فيه من اللذة والمتعة على خلاف التصريح.

— يكون القول مغيّراً عن القول الحقيقي بالتشبيه والاستعارة والمجاز، وبما فيه من **الأسماء الغريبة**: فهي ألفاظ غير مبتذلة عند الناس وغير مستعملة عندهم، إنما يستعملها الخواص منهم، **والمركبة**: نحو: قولهم عبقي في المنسوب إلى عبد قيس، **والمغلطة**: وهي الألفاظ التي يعسر النطق بها، لأسباب تعود إلى طبيعة الحروف المتجاورة أو إلى كثرتها، **والموضوعة**: وهي الألفاظ المخترعة التي لم تكن مستعملة في ذلك اللسان.

— فرّق ابن رشد بين اللغة الشعرية واللغة البرهانية واللغة الخطابية جميعاً، أما في البرهان فتستعمل اللغة على ما وضعت له دون تغيير، أما لغة الخطابة فتستعمل الألفاظ الحقيقية والمغيرة التي أصبحت مشهورة وانتفى ما كان فيها من غموض

وإيهام، أما اللغة الشعرية فتختلف عنهما، فهي تستعمل الألفاظ المغيرة لأن وظيفتها التخيل والتعجيب.

التغيير عند ابن رشد أبرز دلالات الانزياح لأنها تتحقق بالإبدال والتشبيه، بإخراج القول غير مخرج العادة، مثل: القلب والحذف والزيادة والنقصان والتقديم والتأخير وتغيير القول من الإيجاب إلى السلب ومن السلب إلى الإيجاب، وبالجملية: من المقابل إلى المقابل، وبالجملية: بجميع الأنواع التي تسمى مجازاً.

— أهم الألفاظ الدالة على الانزياح: التخيل (المحاكاة)، والتغيير (التبديل)، والإغراب، والمجاز، والاستعارة، والتشبيه، والكناية، والرمز، واللغز، والتحريف، والكذب، والتغليط، وغيرها.

بين الفيلسوفين

— يختلف ابن رشد نسبياً عن ابن سينا في حدّ الشعر، فقد عرّف ابن سينا الشعر بأنه كلام مخيّل مؤلّف من أقوال موزونة مقفاة، وعرّفه ابن رشد، بأنه إخراج القول غير مخرج العادة؛ أي: مغيّراً عن القول الحقيقي، فإذا غيّر القول الحقيقي سمي شعراً أو قولاً شعرياً، ورغم الاختلاف بين الحدّين، إلا أنّهما يتفقان في مسألة في غاية الأهمية، وهي ما يمثل شعرية الشعر، وهي التخيل في حدّ ابن سينا، والتغيير في حدّ ابن رشد، فالتخيل أو المحاكاة تقوم على التغييرات أو الانزياحات، أمّا التغيير في حدّ ابن رشد فإنه يبيّن الدلالة على الانزياح، فجهود الفلاسفة، من خلال ابن سينا وابن رشد، لم تخرج عن فهم جيّد للتغييرات التي تنتج من المجاز كنوع من الترميم يدرسه السامع فيما بعد، وكلما كان الموضوع مغايراً لما كان يتوقعه، كان ألفت وأكثر رشاقة، لأنه يوحي بمعنى أكثر مما يتضمنه اللفظ، وللسبب عينه كانت الألفاظ لذيدة، وسبيلها سبيلُ المجاز (طاليس، 1979م، ص220)، لما فيها من التغيير والإدهاش بالمفاجأة.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم — رواية حفص.
- أحمد الشارفي: مقال؛ سلطة المجاز، مجلة فكر ونقد، الموقع الإلكتروني: www.fikrwanakd.aljabriabed.net، ع 64، تاريخ التزليل: 2008/04/13م.
- البنداري، حسن، 2000م: الصنعة الفنية في التراث النقدي، مركز الحضارة العربية — القاهرة، ط 1.
- تحريشي، محمد 2004: النقد والإعجاز. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- عبد الجليل، منقور 2001م: علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- جمعي، الأخضر 2001م: اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- جمعي، الأخضر: نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، سلسلة المعرفة.
- حسين حمري، 2001: الظاهرة الشعرية العربية — الحضور والغيب —، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- ابن حلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر — بيروت.
- درابسة، محمود 2003م: مفاهيم في الشعرية، دراسات في النقد العربي القديم. مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، أربد، الأردن. ومكتبة المتنبي، الدمام، المملكة العربية السعودية.
- ابن رشد، 1960م: تلخيص الخطابة، تحقيق و تقديم عبد الرحمن بدوي، دراسات إسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- ابن رشد: كتاب الشعر، "فن الشعر" لأرسطو طاليس، ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه، عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت لبنان.
- ابن سينا (أبو علي الحسين بن عبد الله): فن الشعر من كتاب "الشفاء" ضمن كتاب "فن الشعر" لأرسطو طاليس، ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه، عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت لبنان.
- طاليس، أرسطو، 1979م: الخطابة، الترجمة العربية القديمة، حققه وعلق عليه عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات — الكويت، ودار القلم — بيروت.
- العقاد، عباس محمود: ابن رشد، سلسلة نوايغ الفكر العربي 1، دار المعارف — القاهرة.
- غرکان، رحمن، 2004: مقومات عمود الشعر الأسلوبية في النظرية والتطبيق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان.
- القرقوري، محمد المعطي: مفهوم المحاكاة بين أرسطو وفلاسفة الإسلام، مجلة فكر ونقد، ع 03.
- المومني، قاسم، 2002، شعرية الشعر. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، مطبعة الجامعة الأردنية، عمان، ط 1.
- ويس، أحمد محمد، 2002: الانزياح في التراث النقدي والبلاغي، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق.